المبحث الثاني:
مصادر التربية الإسلامية

قول تربوي:

«أمرنا أن نعلم أولادنا الرمي والقرآن».

خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كنز العمال ٥٨٥ / ١٦
رواه الطبراني)

أرسل الله – عز وجل – سيدنا محمد ﷺ ليختتم به الرسل و يختتم برسالته الرسالات؛ ولذا فإن الله عز وجل أودع في رسالة النبي محمد ﷺ -القيم والمبادئ- ما يجعلها كفيلة لأن تبقى صالحة تربي أجيالًا ما بقيت الدنيا وكان سيدنا محمد ﷺ هو المعلم والمبلغ عن ربه، ومن بعده صحابته – رضي الله عنهم أجمعين – ولذلك جاء الإسلام ليحترم عقل الإنسان، و يدعوه في كثير من آياته للتأمل والتفكير والتدبر؛ ليستنتج و يوازن، و يعلم ما يصح وما لا يصح، وما يحسن وما لا يحسن، ولذا نستطيع أن نقول: إن مصادر التربية الإسلامية تنحصر في:

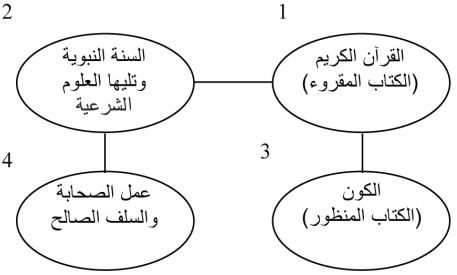

وسنأخذ المصدر الأول وهو «القرآن الكريم» كنموذج لننظر كيف يكون مصدرًا للتربية الإسلامية، وكيف أنه يحوي منهجًا تربويًا متكاملًا وفريدًا ؟

أولًا: القرآن الكريم: يقول المولى عز وجل في كتابه الحكيم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

إذن فالمولى سبحانه وتعالى تكفل بحفظ كتابه بألا يعتريه تحريف أو تزييف، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين، وهو المصدر الأول للإسلام؛ وبالتالي للتربية الإسلامية، فتعاليم الإسلام ترجع في أصلها إلى القرآن الكريم من عقائد، وعبادات، ومعاملات.. الخ.

(منهج القرآن في التربية)

لقد أوضح القرآن الكريم أن للإنسان غرائز ملازمة له وهذا واقع الإنسان.

أولًا: القرآن الكريم يُعرَف ذلك الإنسان

الغرائز والطبائع والميول التي ذكرها القرآن الكريم:

أولا: غريزة الخوف والضعف البشري، وحب الادخار، والشح، واستعجال الخيرات والملذات، وجموح الغرائز:

١ - غريزة الادخار والشح:

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]

٢ – غريزة الخوف والضعف البشري:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١]

٣ – غريزة استعجال الخيرات والملذات:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١]

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة: ٢٠]

٤ – غريزة الجموح للغرائز والشهوات:

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ [البقرة: ٣٦]

٦ – غريزة حب الظهور والاستعلاء والتفاخر:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧]

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

٧ – غريزة الأبوة والأمومة من محبة الأولاد والخوف عليهم:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩]

٨ – عاطفة الإيمان بالله وتجليها عند الخوف:

وكونها مركوزة في قلب أشد الكافرين وأعمق المنكرين.

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: ٨]

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣]

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢]

٩ – غريزة الاجتماع: (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣]

وبعد أن أوضح القرآن الكريم هذه الغرائز وضع منهجًا للتربية، ويقوم منهج القرآن على أسس ثلاث(٢):

١- المحاكمة العقلية. ٢- القصص والتاريخ.

٣- الإثارة الوجدانية.

أولًا: المحاكمة العقلية: تتألف بنية المحاكمة العقلية، في القرآن، من ثلاثة جوانب:

---

(١) القرآن في التربية الإسلامية: الشيخ / نديم الجسر – صـ ٢٦ - ٣٠ - يتصرف ط/ هدية مجلة الأزهر شعبان ١٤٢٥ هـ

(٢) منهج تربوي فريد في القرآن د/ محمد سعيد رمضان البوطي – مؤسسة الرسالة صـ٢١، ٢٢

الأول: تعريف الإنسان بذاته.

الثاني: اختيار أسلوب صالح لمدارك جميع الناس.

الثالث: الاعتماد على المناقشة والحوار.

الجانب الأول: تعريف الإنسان بذاته قبل كل شيء، فقد بدأ القرآن خطابه إلى الناس بتوجيههم إلى النظر والتأمل في أنفسهم، وبالحديث عن أصل الإنسان وحقيقته وكيفية نشأته وتكاثره.

تجد ذلك واضحًا في أول الآيات القرآنية نزولًا، كما تجده في أولى صفات القرآن الكريم كتابة وترتيبًا؛ فقد كانت أولى الآيات القرآنية نزولًا تعريف بالإنسان وجوهره، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] فأنت ترى أن الله عز وجل لم ينبه الإنسان إلى ربوبية الله ووحدانيته إلا من حيث أرشده إلى ذاته وأصل تكوينه ونشأته

«ولهذه البداءة التمهيدية أهمية تربوية كبرى؛ ذلك لأن جميع المعارف التي يكتسبها الإنسان إنما هي فرع لمعرفة سابقة هي معرفته لذاته، فلولا إيمانك بالعقل ووظيفته ما آمنت بشيء عن مقولاته وأحكامه، ولولا معرفتك لتركيبك النفسي والجسمي لما عرفت شيئًا من حقائق الكون التي تطوف من حولك» [1]

فيبدأ القرآن في محاكمته العقلية للمنكرين بلفت أنظارهم إلى

(١) المصدر السابق صـ٢٣

أنفسهم و إلى قصة وجودهم، حتى إذا استرعى أذهانهم ذلك؛ أخذ يحدثهم عن وجود الله ووحدانيته وعبودية الإنسان له.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ - ٨] (١)

الجانب الثاني: «اختيار أسلوب صالح لجميع الناس على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم وأزمانهم؛ فليس من سبيل لجذب الناس إلى المبدأ المطلوب، طالما كان أسلوب الدعوة والتعليم صالحا لفئة منهم دون أخرى».

و إنها لأشق شريطة من شرائط المنهج التربوي الذي يراد سلوكه مع جمهرة مختلفة من الناس، وما يخفق أكثر المربين – من ناحية المنهج والأسلوب- إلا لعدم سيطرتهم على طريقة من القول والبيان تأتي على قدر إفهام جميع السامعين أو المتعلمين (٢)

انظر إلى قوله عز وجل وهو يصف الشمس والقمر بأبرز ما يختص به كل منهما: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] و إلى قوله سبحانه في الموضوع نفسه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥- ١٦]

و إلى قوله سبحانه أيضًا فيهما ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] فأنت ترى أنه وصف الشمس في الآيات الثلاث

(١) المصدر السابق صـ ٢٦

(٢) المصدر السابق صـ ٢٦ ، ٢٧

بكونها سـراجًا أو ضياء، والقمـر بكونه نورا أو منيرًا، وهو وصف دقيق ينطوي على معان مختلفة تتوزع على أصناف الناس حسـب ثقافتهم، ومـدى إمكان الفهم لديهم، وهي جميعًـا معان ثابتة لكل منهما.

فأمـا الأعراب من الناس فيفهمون من هذين الوصفين أوسـع قدر مشـترك بينهما، وهو الضياء المطلق؛ إذ السـراج والنور يلتقيان على هذا المعنى المشـترك العام، وأما عامـة المثقفين من الناس فيدركون من هذين الوصفين - بالإضافة إلى المعنى المشترك بينهما - أن الشمس تنفث مع الضياء حرارة أيضًا، وأن القمر يعطي ضياء لا حرارة فيه؛ إذ الشيء المضيء لا يطلق عليه اسم السراج إلا إذا كان يشع بالحرارة.

وأما علمـاء الفلك أو عامـة المدركين لطبيعة كل من الشـمس والقمـر، فيفهمون من هذين الوصفيـن - إذا كانوا على علم باللغة العربيـة وفقههـا - أن الآيـة ناطقـة بأن ضياء الشـمس يسـطع من داخلهـا، وضيـاء القمر ينعكس إليـه من جرم آخـر مقابل له؛ لأن ذلك هو الفـرق اللغوي الدقيق بين الكلمتيـن؛ فأنت تصف الغرفة بأنها منيرة أو مضيئة ولا تصفها بأنها سـراج، إذ إن ضياء الغرفة إنما ينعكس إليها من المصباح المضيء في داخلها، والسراج إنما ينبثق ضياؤه من داخله[1].

الجانب الثالث: الاعتماد على المناقشـة والحـوار، وللقرآن في ذلك أسـلوب رائع عجيب، فهـو إذ يناقش و يحاور، يثير النظر إلى

(١) المصدر السابق صـ٣٢ ، ٣٣

الأدلة و يعـرض لها و يدع ثمارها ونتائجها مكشـوفة في تضاعيف الكلام، دون أي نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاسـتنتاج للسـامع المتأمل، وتلك هي فائدة الأسـلوب الحـواري القائم على السؤال والنقاش.

فالغرض منه سَـوق التلميذ في الطريـق العلمي المطلوب بنفس السـرعة التي يسـير بها المربـي أو المعلم؛ إذ إن مـن أخطر آفات السرد والإلقاء المجرد أن يسير المعلم في شرحه و يصل إلى النتيجة العلمية المطلوبة، بينما السـامع لا يزال واقفًا حيث هو، أو يسـير متخلفًـا عنـه في متاهات متعثـرة لا تفيد علمًا، ولا تكتسـب فهما، فـإن تصريح المناقش المربى بنتائج الأدلة وثمراتها (أثناء النقاش) يذهب بجدوى عمله التربوي كله.

وربما جاء الأسلوب الحواري لتحقيق فائدة أخرى، هي الكشف عن عناد المعاند، ومعرفته للحق الذي يتظاهر بجهله، فإن المناقشـة تحركه وتلجئه إلجاء إلى الكشف عن خبيئة أمره و باطن ما في نفسه.

انظر إلى هذه الآيات التي جاءت في أواخر سورة النمل ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ

﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

إنه أسلوب حواري كما ترى، يقوم على إثارة الأسئلة المنبهة للعقل والمحركة للفكر، ولا تجد أي جواب صريح على سؤال منها.

وإنما نجد من الجواب لفت النظر إلى حيث يتسنى للفكر أن يدرك الجواب الصحيح ويتنبه له.

إنه يسأل ويلح في السؤال وطلب الجواب، ولكنه سرعان ما يُضْرب عن السؤال وطلب الجواب معا؛ ليلفت النظر إلى أساس المشكلة في الأمر: إنهم يعدلون بالله غيره سلفًا.

إن هذا الأسلوب الحواري يكشف عن عناد المشركين، ثم يزحزحهم عن مواقفهم العنادية هذه، ويضعف فيهم طاقة التشكيك والتجاهل، وبذلك يكونون مادة تربية لغيرهم إن أصروا على كفرهم مع ذلك، أو يكون هذا الحوار مادة تربية لهم أنفسهم إذ نبههم إلى صحو الإيمان وضرورة الإنصاف.

ثانيًا: القصص والتاريخ: [1]

للقصص والأبحاث التاريخية أهمية كبرى في المجال التربوي، ولكن الشأن ليس في إيراد القصة كيفما اتفق، وإنما الشأن في معرفة الطريقة التربوية التي يجب أن يتم نسيج القصة

(١) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم - الدكتور البوطي

على أساسها.

أ- لا يسوق القرآن من القصة إلا ما يتعلق بالغرض الذي سيقت القصة من أجله؛ كي تظل الصلة متينة بينها وبين المناسبة الداعية إلى ذكرها، بحيث تبعث القصة فيها الأهمية، وتمدها بالحركة والحياة؛ من أجل هذا لا تكاد تجد القرآن يسرد حوادث القصة سردًا تاريخيًا تبعًا لسلسلة الوقائع والأحداث، إذ من شأن ذلك أن تبتعد القصة بالقارئ عن المناسبة والغرض الأصلي اللذين ذكرت بصددهما.

تقرأ مثلًا في قصة أصحاب الكهف قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: ١٣-١٤].

فأنت ترى أنه بدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم الكافرين، فآمنوا بالله وحده، وأنهم من أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم في شواهق الجبل وبطون الكهف فمن هؤلاء القوم؟.. وفي أي بلدة كانوا يعيشون؟.. وكم كان عدد هؤلاء الفتية ؟ وما هي أسماؤهم؟

لقد كان مقتضى السرد التاريخي أن تجيب القصة عن هذه الأسئلة كلها.

ولكنها لو سارت على هذا المنوال لما وفّت بالغرض الذي استهدفته، ولانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث تاريخية شائقة

يتطلع إلى معرفتها، ولغفل بذلك عن العبرة والعظة اللتين سيقت القصة من أجلهما.

ب. تضمين النصائح والعظات في ثنايا القصة: ويهدف المنهج التربوي من ذلك إلى ألاّ يندمج القارئ مع القصة، وينصرف إليها بكل تفكيره، فيطول به العهد وينسى المساق الأصلي للقصة، وتلك هي آفة الاستعانة بالقصة في التربية والتهذيب؛ إذ من شأنها أن تبعد القارئ أو السامع تدريجيًا عن مساقها الذي انطلقت منه، وغايتها التي تسير إليها، بسبب انشغال الفكر بأحداثها ومفاجآتها، وبما قد يكون لها من مشاهد مثيرة.

فإذا تغلب المربى على هذه الآفة، واعتمد على أسلوب حكيم، لا يُقصي السامع خلال مراحلها المختلفة عن المحور التربوي الذي انطلق منه؛ كانت القصة إذ ذاك أعظم وسيلة تربوية ناجحة، وذلك هو منهج القرآن فيها.

يقص الله علينا في سورة «طه» خبر «موسى وفرعون»، حتى إذا تشعبت أحداث القصة، وكاد السامع أن يغفل عن مساق القصة والغرض منها، بالتأمل في واقعها وغريب أحداثها، فوجئ القارئ - بأسلوب بالغ الحكمة والروعة أثناء ذلك بحديث آخر جديد يتوجه إلى السامع بالموعظة والإرشاد، ويشده إلى الغرض الكلي الذي سيقت القصة من أجله.

حتى إذا حقق هذا الحديث الطارئ أثره المطلوب في نفس السامع، عاد السياق مرة أخرى إلى القصة وأحداثها.

تأمل هذا كله في قوله تعالى، وهو يقص علينا سبحانه وتعالى من نبأ موسى وفرعون:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٦].

فانظر كيف توقف سير القصة، ليظهر من ورائها في حكمة حديث آخر يتحول فيه الخطاب مما بين موسى وفرعون، إلى ما بين الله وعباده، متضمنًا الامتنان بالنعم، والتحذير من النقم، والتنبيه إلى بالغ سطوة الله وعظيم جبروته.. حتى إذا اصطبغت القصة بهذا الجو الإرشادي، واستعاد السامع أو القارئ بذلك انتباهه إلى الغرض الكلي الذي من أجله نزل القرآن - عادت القصة إلى مسارها بدءًا من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[1].

ثالثًا: الإثارة الوجدانية:

ويتلخص المنهج التربوي في القرآن الكريم لاستخدام هذه الوسيلة في مراعاة الأمور التالية:

١. أن لا تكون بديلاً عن حركة العقل وحكمه، بل عونًا على

(١) المصدر السابق صـ ٥٤- ٥٦

حركته ونشاطه ثم عونًا له لإخضاع النفس لحكمه.

٢. أن يعتمد سبيل الإثارة الوجدانية قدر الإمكان على التصوير والتخيل، لا المحاكمة العقلية والنسيج المنطقي، فإن فاعلية الوجدان تضمحل في غمار التأمل الفكري والمحاكمة العقلية.

٣. أن يعتمد المربى على مزيج متكافئ من العناصر الوجدانية المؤثرة، بدلًا من أن يركز على عنصر واحد منها.

تأمل هذا النص القرآني العظيم، كيف يبدأ بإثارة العقل وتنبيهه إلى الحقيقة بالوسائل العلمية والفكرية المجردة، ثم يثير كوامن الخوف والتحذير في النفس كي لا تتمرد على حكم العقل وقراره الذي لا مرية فيه:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٤٢].

فالشطر الأول من النص تنبيه للعقل إلى دلائل وجود الخالق عز وجل ودفع له إلى الإيمان، والشطر الثاني إثارة النفس عن طريق كوامن الرغبة والرهبة أن تتفاعل مع فهم العقل وحكمه؛ فلا تنفصل عنه ولا تتمرد عليه.

ولابد أن يعتمد سبيل الإثارة الوجدانية قدر الإمكان على التصوير والتخيل لا المحاكمة العقلية والنسيج المنطقي، فإن فاعلية الوجدان تضمحل في غمار التأمل الفكري والمحاكمة العقلية.

وتلك هي الطريقة المجدية كلما احتاج المربي إلى الاستعانة بالعنصر العاطفي للوصول إلى غاية تربوية، وتلك هي الطريقة التي يسير عليها القرآن!.

إن القرآن لا يخاطب العقل إلا حينما يريد أن ينبهه إلى حقيقة علمية أو فكرية مجردة؛ فإذا ما أراد إثارة شيء من كوامن الوجدان في النفس اتخذ إلى ذلك أسلوب الوصف والتصوير، ووضع من ذلك أمام خيال القارئ أو السامع أدق مرآة تبرز فيه الصورة المطلوبة بكل جلاء ووضوح.

وربما عبر القرآن (لإبراز هذه الصورة أمام النفس) بكلمة واحدة، وربما وضعها في بيان يتألف من بضع آيات حسب ما يقتضيه الحال، وحسب طبيعة سياق الكلام.

انظر إلى هذه الآيات من سورة الإسراء:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾[الإسراء: ٢٣] إنها آيات تخاطب في الإنسان عقله، تأمره بأن لا يدين لعبادة أحد غير الله عز وجل وأن يحسن إلى والديه ولا يؤذيهما بقول أو تصرف.. ولكن هذه الأوامر تحتاج

لانصياع النفس لتنفيذها إلى إثارة عاطفية يخضعها لأمر الله عز وجل، ولقناعة العقل الرشيد بهذا الأمر، فأين هي الإثارة العاطفية في الآية وكيف كان سبيلها؟

إنها قوله عز وجل: ﴿عِندَكَ﴾

لو حذفت هذه الكلمة عن الآية، لاختفى منها أعظم عوامل التأثير فيها؛ إنها كلمة واحدة؛ ولكنها تفيض بشحنة هائلة من العواطف المثيرة؛ إذ هي تصور للمخاطب حالة والديه وقد انتهيا من الضعف والشيخوخة إلى أن غدا كل منهما يعيش في كنفه وفي ظلال عطفه ورعايته، بعد أن كان هو الذي يعيش في كنفهما وفي ظلال عطفهما ورعايتهما.

فانظر كيف أثار في نفس الابن عوامل الشفقة والرحمة بهذه الكلمة التصويرية التي وضعها أمامه، دون التوسط لذلك بأي إرشاد عقلي أو توصية أو تذكير فكري، ولو استعيض عن هذه الكلمة التصويرية المباشرة بشيء من عبارات التذكير والتنبيه ونحوهما؛ لاستيقظ من العقل حاجز يقف دون تصور النفس لهذه الصورة المثيرة المؤلمة، وإذا لما كان لهذا التوجيه الأخلاقي أثره الإيجابي المطلوب في النفس.

ولا بد من الاعتماد على مزيج متكافئ من العناصر الوجدانية المؤثرة، وعدم تغليب عنصر منها على آخر.

إن منابع العواطف في الإنسان تنحصر في الأصول الثلاثة التالية[1]:

أ- عواطف دافعة: كالفرح، والأمل، والرغبة.

ب- عواطف رادعة: كالخوف، والرهبة، والإشفاق.

ج- عواطف ممجدة: كالإعجاب، والحب، والتقديس.

و إذا تأملت في مختلف المشاعر الوجدانية في حياة الإنسان، أدركت أنه ما من معنى عاطفي إلا و يعود نسبه إلى واحد من هذه الأصول الثلاثة، وهي وحدها عمدة المربي عندما يعتمد في عمله التربوي على الإثارة الوجدانية.

وليس في اعتماد المربي على العنصر العاطفي، من حيث هو، كبير أهمية و إنما تكمن الأهمية كلها في القدرة على تكوين مزيج متكافئ معتدل من هذه الأصول الثلاثة التي هي ينابيع العواطف كلها؛ ذلك لأنه إذا استقل بالتأثير أحد هذه الأصول أو كانت له الغلبة على سواه، أصبح مصدر سوء وسبب هلاك، ولم يبق فيه للأهداف التربوية أي جدوى.

فسَوق المُربي لتلميذه بعصا الرهبة وحدها سبب واضح لهلاكه، ودفعه بعامل الفرح أو الرغبة وحدها سبب خطير لإفساده، وملء إحساسه بمشاعر التقديس والإعجاب وحدها دون أن يستغل ذلك لتوجيه يعتمد على شيء من الترغيب والترهيب لا يحرك فيه ساكنًا

(١) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم – د/ محمد سعيد رمضان البوطي

ولا يغير اعوجاجًا، و إنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه المشاعر الثلاثة كلها، وما فسدت المعالجات التربوية ولا تخلفت عن إعطاء ثمارها المرجوة على الأغلب إلا لفقد هذا المزيج المعتدل.

وكتاب الله تعالى يجذب أفئدة الناس بقوة وجدانية (بعد المحاكمة العقلية والعرض المنطقي) مكونة من هذه الأصول الثلاثة في اعتدال وتكافؤ دائمين؛ فأنت لا تجد فيه آية تسلم الإنسان إلى رهبة مجردة، أو تمنيه ببشارة صافية عن شائبة الخوف؛ بل إن من القواعد الكلية في كتاب الله تعالى أنه لا يذكّر الإنسان بشيء من صفات السطوة والانتقام لله تعالى، إلا و يذكّره إلى جانبها بصفات الرحمة والغفران، ولا يحدثه عن شيء من صفات الجنة وما فيها من نعيم، إلا و يحدثه إلى جانبها عن جهنم وما فيها من مظاهر التعذيب، ومهما بحثت في كتاب الله تعالى فلن تقف على أي شذوذ لهذه القاعدة، ولن تقف على نص يتضمن وصف إحدى هاتين الصورتين إلا و إلى جانبه وصف مقابل للصورة الأخرى.

انظر إلى قوله عز وجل:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]

بل انظر إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن

يَأْتِيكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

وانظر إلى هذه الآيات الأخرى، كيف يصف الشطر الأول منها عذاب الله تعالى يوم القيامة للكافرين، وكيف يصف الشطر الثاني منها بالمقابل رحمة الله تعالى ونعيم الجنة لعباده الصالحين:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٧].

وفائدة الالتزام بهذه القاعدة أن الإنسان يبقى بين جانبي الرغبة والرهبة دون أن يطغى أحدهما على الآخر: لا يشتد في نفسه الأمل في رحمة الله عز وجل إلى درجة تقعده عن الواجبات والتكاليف المنوطة به، ولا يشتد فيها عوامل الخوف والرهبة إلى درجة تصرفه أيضًا عن القيام بواجباته، يأسا منه و يقينا بأنه سعي غير ذي جدوى وأنه غير مقبول عند الله عز وجل.

وكل تربية من المربي مهما كان نوعها للتلميذ أو الطفل مهما كان شأنه، لا تنهض بشكل سليم إلا على كل من هاتين الدعامتين معًا «الرغبة والرهبة»[1].

(١) المصدر السابق صـ ٨٢ : ٨٧

وبعد أن استعرضنا منهج القرآن التربوي، وكيف أنه مصدر أصيل وثري بل هو المصدر الأول للتربية الإسلامية؛ ندعو علماءنا وباحثينا للأخذ من هذا المنهل العذب والمعين الصافي من مصدر ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]

ثانيًا: السنة النبوية: والمصدر الثاني للتربية الإسلامية هو السنة النبوية الشريفة، ولقد أكد النبي ﷺ على أهمية السنة النبوية فقال: «ألا إني قد أوتيت القرآن ومثله معه»[١] فالسنة هي التطبيق العملي للقرآن، وهي سجل حافل لحياة النبي ﷺ وجهاده في سبيل دعوته، ولا يستغني أي مربٍّ عنها فجميع المربين ينهلون من معين السنة العذب - فيروون ويرتون – فإنه مما لا يختلف عليه اثنان أن القدوة من أهم وأنجح وسائل التربية، وهل يجد المربون قدوة أفضل من سيد الخلق محمد ﷺ ؟[٢]

ثالثًا: حياة الرعيل الأول: والمصدر الثالث هو النموذج الذي تربى على يد النبي ﷺ، وفي مدرسته.

هؤلاء الرجال الذين عبر عنهم النبي ﷺ بأنهم خير القرون، فهم ألصق الناس وأقربهم إلى رسول الله ﷺ، وأعرفهم بهديه ﷺ، وفيهم يقول ربنا عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) رواه أبو داود الترمذي

(٢) من أراد التفصيل فليرجع لكتاب منهج التربية النبوية للطفل أ/ محمد نور بن عبد الحفيظ سويد

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وما زال شباب الإسلام في كل عصر يستقون من معين فضائلهم، ويستضيئون بنور مكارمهم، وينهجون في التربية نهجهم، ويسيرون في بناء المجد سيرهم.

وصدق رسول الله ﷺ القائل: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[1].

فالصحابة كما أجمع العلماء كلهم عدول؛ فبأيهم اقتدى المسلم اهتدى[2].

رابعًا: الكون: المصدر الرابع من مصادر التربية هو كتاب الله المنظور - الكون بكل كواكبه ونجومه، أشجاره وأنهاره، الرياح والبحار والجبال - فالقرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الأشياء سماها آيات ودلائل ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

ولقد أمرنا المولى سبحانه وتعالى بالنظر والتدبر في هذه الآيات

(١) رواه البيهقي والديلمي وهو حديث سنده ضعيف إلا أن معناه صحيح

(٢) من أراد التفصيل فليرجع إلى حياة الصحابة للكاندهلوي، صور من حياة الصحابة-أ/ عبدالرحمن رأفت الباشا

لأخذ العبرة والعظة، و يأخذ منها المربون المثل، ومنها نتعرف على صفات الله سبحانه..

سنشاهد الحكمة في كل مخلوقات الله.. تشهد أنها من صنع الحكيم.

سنشاهد القوة في كل مخلوقات الله.. تشهد أنه القوى.

سنشاهد الصورة البديعة في كل مخلوقات الله.. تشهد أنه المصور البديع.

سنشاهد الحياة فى كثير من مخلوقات الله.. تشهد أنه المحي المميت.

وهكذا..

والإنسان نفسه آية من آيات الله ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

وهو من وجهة نظر التربية الإسلامية خليفة الله والكون كله مسخر له.

هذه هي مصادر تربيتنا الإسلامية: كتاب الله المقروء، وسنة النبي ﷺ، وحياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين، وكتاب الله المنظور «الكون».

إذن فلماذا لا تتضمن مناهج العلوم هذا الربط الجميل بين كتاب الله المقروء وكتابه المنظور بغير تكلف ولا تعسف؛ مما يساعد على تدعيم و إرساء قواعد الإيمان في نفوس الطلاب والناشئة[1].

(١) التوحيد – عبد المجيد الزنداني – ج١ - صـ١٨، ١٩ - ط٢ – دار المجتمع للنشر والتوزيع ١٩٨٦